

## مسالك القوافل التجارية في شمال وجنوب الجزيرة العربية\*

شهدت جزيرة العرب نهضة تجارية وعمرانية عندما كانت المنطقة العالمية الوحيدة الموصلة بين أقطار الشرق والغرب، وكانت قوافلها البرية هي الوسيلة الأولى لنقل السلع التجارية إلى تلك الأقطار.

ونحن عندما نتحدث عن مسالك القوافل العربية القديمة إنما نتحدث أولاً وقبل كل شيء عن المسالك البرية التي كانت تسلكها القوافل من البحر إلى الخليج ومن الخليج إلى البحر، ذلك لأن العرب كانوا يفضلون ركوب البر بعيدين عن أنواء البحار ومخاطرها، ولهذا نرى أن مدنهم الحضارية وما تكتنفه من معابد وقصور وما يحيط بها من جنان وسدود، ما كانت إلا في الصحراء، وخصوصاً على ذلك الدرب الطويل الذي يبتدىء من شواطئ البحر العربي في الجنوب وينتهي بشواطئ البحر الأبيض المتوسط في الشمال والخليج العربي في الشرق.

لقد قامت على هذا الدرب الهام دول كبرى كمعين وحضرموت وسبأ وقتبان في الجنوب، ودولة الدادان واللحيانيين والأنباط والتدمريين في الشمال، أثبتت هذه الدول قدرتها في تأمين هذا الخط وما تفرع منه يميناً وشمالاً بما أنشأت به من مدن وأقامت من استراحات وشيئت من استحكامات.

(هـ) — ألفت في الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

فعلى هذا الدرب قامت شبة ومأرب ونجران والفاو والعلاء والبتراء وهي مدن عظيمة لا تزال بما تكتنفه من آثار وما تحويه من حضارة رمزاً لقوة العرب ومجدهم التليد.

لقد كان العرب همزة وصل تجارية بين أقطار العالم القديم، يحملون إلى الشرق منتجات الغرب من خشب الأبنوس وريش النعام، ومن عاج وذذهب وفضة، وإلى الغرب منتجات الشرق من توابل وأفوايه وفلفل و بهار وقصدير، كما كانوا يحملون إلى كل من العالمين منتجاتهم النفيسة وفي مقدمتها البخور واللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة من عقيق وجزء وبقران، إلى غير ذلك مما كانت تجود به صناعاتهم من ثياب محبرة وبُرْدٍ موشَّاةٍ وأثواب مقصَّبة وبسُطٍ مرحَّلة.

لقد كانت السفن الهندية والصينية تأتي محمئةً بالبضائع تُرسو في عدن وكانى (حصن الغراب) والشحر والمكلا وهناك تفرغ حمولاتها لتُنقلها قوافل المعينين والسبثيين عبر الصحراء فتمر بتلك المدن وتنتهي به في صور وصيدااء في الشمال بواسطة العلاء والبتراء، أو تتجه به غرباً إلى غزة وعسقلان أو شمالاً شرقياً إلى الحيرة والمدائن، أو تسير شرقاً فتنتهي في بربين والعقير على الخليج العربي.

وكان يتفرع من البتراء ضريق يسير إلى دمشق وسية نصغرى، ومن مدائن صالح كان يتفرع ضريق يتجه إلى تيماء ومنها عبر صحراء إلى بلاد ما بين النهرين، أو الجوف ومنها إلى ودي نسرحد فسوريا.

وقد عثر في تلك لندروب لأصصية والفرعية على آثار هامة، وأرغ عمليات التنقيب لقادمة سوف تسفر عن مدن أخرى واسترحات ومرافق لا تزال ضي التراب وزهن لأنقاض.

لقد ظلت تلك المسالك المنافذ الرئيسية لنقل التجارة بين أقطار العالم القديم منذ عصور ما قبل التاريخ على رأي سبرنجر وحتى عهد هيبالوس

عندما اكتشف فن الملاحة المباشرة عبر المحيط الهندي، وذلك في منتصف  
تقرن الأول للميلاد، مما أثر في حركة القوافل العربية ثم في توقفها، وجاء  
الحصار الروماني في القرن الرابع للميلاد فكان ضربة قاصمة لا لتجارة  
الجزيرة العربية فحسب، بل لحضارتها وثقافتها أيضاً.

وخلال عصور الحصار الروماني الذي استمر مطوقاً للجزيرة العربية حتي  
مجيء الإسلام قامت بين أهلها حروب وفتن فكان ذلك معولاً آخر لضرب  
حضارة تلك المدن الصحراوية العظيمة وتدميرها بنزوح الاهلين منها إلى  
مناطق الجبال حيث عُمرت الحصون الشائخة والقلاع الحصينة والمدن المسورة.

وكانت تلك المسالك القديمة سيظل أمرها، كالمدين الصحراوية في زوايا  
الجهالة والنسيان، لولا أن المؤرخين الإسلاميين قد أولوها اهتمامهم فيما كتبه  
عن مسالك الحاج إلى بيت الله الحرام، ويمكن حصرها في عشرة مسالك أو  
دروب.

(١) درب صنعاء — الكوفة، ويبتدىء من صنعاء، عمران، صعدة،  
نجران، القارة، الكوكب غربي الفاو، الكوكبية بوادي الدواسر، الأفلج،  
اليمامة، الرياض، جبل بُرمة، وادي الرُّمة، الشملول، ثم تمر شرقي الدهناء  
باللهابة واللصافة والقيصوة والجميمة حيث تلتقي بدرب زبيدة على الحدود  
العراقية وبدرب الجوف في بكرة الشَّاميَّة ومنها إلى المسجد فبركة الحمام  
فبركة الحمد فالنجف فالكوفة.

(٢) درب صنعاء — مكة : وقد ضمنه الرداعي في أرجوزته ونقل  
الأرجوزة الهمداني في الصفة، وينفصل بعد نجران من الحسينيه على بعد  
٣٠ كم من نجران ثم يتَّجه نحو الشمال الغربي فيمر بخشم العلني، جبل  
المطبق، الجعيفرة، حمضه، جبل الربوث، وادي تثليث، جبل الفراش، بيشة  
وفي بيشة يلتقي مع درب صعدة، ومنها إلى الطائف فمكة.

(٣) درب صنعاء — العُقير : وينعرج شرقاً من الكوكبية بوادي الدواسر

٣٠ كم شمال الفاو، فيمربخشم المجاميع بالسليث ثم يخترق رملة ابن  
عضبان، البليدة، أبو بجر، المغامة، جبل ذاب، يبرين، حرص، الهفوف،  
الحشة، العقير.

(٤) درب دمشق - مكة : وقد أشار إليه الإدريسي في النزهة وابن  
بشر في فتح دمشق وابن الفقيه في البلدان وابن رسته في الأعلام النفسية  
وابن خردادبته في المسالك وأبو الفداء في المختصر وكان أبو الفداء قد سافر  
علي هذا الدرب من مكة إلى حماة فقدره بما يساوي ٩٠٠ كم، وحكى ابن  
بشر في فتح دمشق أن أبا عبيدة بن جراح سلك هذا الدرب في فتحه  
لدمشق، كما أشار ابن الفقيه إلى أن رحمة الويلد بن عبد الملك إلى مكة  
كانت بواسطة هذا الدرب أيضاً . والدرب يبدأ من دمشق كما ذكر  
الإدريسي، بالكسوة على الشضىء غربى نهر الأعوج، زراع، ذات المنازل  
حنوا، الدمة، ذات الخراج، نسرة، تبوك، حنين، القراع، وادي القرى  
(العلاء) المدينة المنورة، لسيه، نروحاء، نرويثه، السقياء، الأبواء، الحجفة،  
قديد، عسفان، مر الظهرن، مكة.

#### (٥) درب الكوفة - مكة :

وهو المعروف عند مؤرخين بنسب أو درب زبيدة أي أم المأمون زوجة  
الخليفة العباسي هرون الرشيد التي أمرت بترميمه وبناء برك واستراحات  
على طولها، لا تزال هذه البرك والاستراحات قائمة، وقد كتب عن هذا  
الدرب العديد من مؤرخين ورحالة العرب أمثال الطبري في التاريخ  
والمسعودي في المروج وابن خردادبته في المسالك وهمداني في الصفة وقدامة  
في الخراج وابن الفقيه في السبل والزبيدي في تاج العروس وابن جبير في  
رحلته وياقوت في معجمه وابن بطوطة في رحلته وحاجي خليفة في جيهان  
نامه. ومحمد ديب في منار حج، وهذا الدرب هو الذي كان يسلكه  
العرب إلى نجران، وكثيراً ما سلكه شعراء جاهليون قصدين بلاط المنذره

في الحيرة، وقد سلكته قريش بعد وقعة بدر كما روى ذلك الطبري وغيره، ومراحله هي : الكوفة، القادسية، المغنية، وادي السباع، القرعاء، واقصة، لعقبة، القاع، زباله، الشقوق، البطان، الثعلبية، الحزيمية، الأجفر، فيد، توز، سميراء، مغيثة، الماوان، الرّبذة، معدن بني سليم، العمق، افاعية، المسلح، الغمرة، ذات عرق، اوطاس، بستان ابن عمر، غمرذي كندة، مشاش، مكة.

#### (٦) درب البصرة — مكة :

وهو للعراقيين والایرانیین، ویتدیء من البصرة، حلیبة، عقلة العضبیه، الرقعي (وهنا يلتقي بدرب الكويت) صفار البطين، الثامي، الطراق، بريدة وفيها يلتقي بدرب القصيم — مكة.

#### (٧) درب الرياض — مكة :

وهو المعروف بدرب الحجاز والذي يوصل الرياض بالمنطقة الغربية وتسلكه السيارات اليوم ویتدیء من الرياض، ضرماء، مرات، ثرمدا، القران، شقراء، الدوادمي، الرميدات، الهمجة، القاعية، (وفيها يلتقي بدرب القصيم) عفيف، الدفينة، المويه، ظلم، العرف، عشيرة، السيل الكبير (وفيه يلتقي بدرب الطائف) الزمراء، مكة، وهناك طريق آخر جديد يمر بالمزاحمية القويعية، حلبان ومنها إلى ظلم حيث يتصل بالطريق القديم.

#### (٨) درب القصيم — مكة :

ويبتدىء من بريدة، عنيزة، الرس، جبل، خزاز، دخنة، وضاح، نفي، الرفايح، الشبيرمة، القاعية، وفيها يلتقي بدرب الرياض.

#### (٩) درب البصرة — اليمامة

البصرة، المنجشانية، الكفر، الرحيل، الشحي، الحفر، ماوية، ذات

العش، الينسوعه، السمينه، النجاج، الموشحه، القرنين، سويقة، صداه، السد،  
السقي، المنبية، السنح، المريقة، اليمامة.

(١٠) درب البصرة — نجران.

الفقي، الخضرمه، الخرج، الفلج، العقيق، الحفر، الكوكب، نجران.

إن الجزيرة العربية بحكم موقعها الجغرافي محاطة من جهاتها الثلاث  
بساحل طويل يبدأ من خليج السويس فيمر بعدن والشحر والمكلاء فسقط  
فالبحرين فالدمام فالبصرة، ولهذا فقد عرف العرب السفن والملاحة والغوص  
منذ أقدم العصور وبرعوا في ارتياد البحر حتى لقد سموا بفينيقيي البحر  
الأحمر.

وقد أوصلتهم سفنهم عبر المياه المغلقة في البحر الأحمر والخليج العربي  
بقطرين عظيمين هما فارس في الشرق ومصر في الغرب ومعنى هذا أنهم  
كانوا يطلون بواسطة ممراتهم في البحر الأحمر والخليج العربي يكملها النيل  
ودجلة والفرات على أهم الطرق التجارية في العالم.

وقد تحدثت النقوش السومرية والأكادية التي ترجع إلى الألف الثالث  
قبل الميلاد عن صلات بحرية بين أرض الجزيرة وبلاد ما بين النهرين، كما  
تحدثت النقوش الهيروغليفية التي عثر عليها في وادي الحمامات بمصر عن  
صلات تجارية وثقافية بين مصر وبلاد بونت التي كانوا يطلقون عليها أرض  
الآلهة.

وكما ازدهرت مدن الصحراء : مأرب ومعين ونجران والعلاء والبتراء  
بطرق القوافل البرية، ازدهرت مدن الجزيرة الساحلية: عدن والمكلا ومسقط  
ودلمون(البحرين) وماجان (عُمان) والجرهاة(العقير) وجبل عينين وهجرا  
(الوجه حالياً) والجار وغيرها، وتحدثت عنها مؤلفات الجغرافيين اليونان  
والرومان واصفةً قصورها وأبراجها ذات الأتية والثراء.

ولقد ترك لنا مؤلف كتاب «الطواف حول البحر الأثيري» ٥٠ - ٦٠م وصفاً مجملأ لسوق موزا (المخاء) حسبما شاهده قال فيه: «كان يردّها من البضائع أنواع الأقمشة الأرجوانية، ناعمها وخشنها، وألبسة خيطة على الزي العربي، ذات أردان تكون بسيطة أو عادية، مطرزه أو موشاة بالذهب والزعفران وقصب الذريرة وأنسجة القطن الشفافة والأعبئة والأحزمة، بعضها بسيط وبعضها مصنوع على الطريقة المحلية، ومناطق ذات الوان عديدة، ودهون عطرية بكميات معتدلة... وتصدر البلاد فاخر المر والصبغ المعيني والرخام اللين (المرم)»<sup>(١)</sup>.

أما سترابون المؤرخ اليوناني فكان له إعجاب عظيم بما ناله عرب الجنوب من تقدم في ميدان التجارة وال عمران شأن غيره من المؤرخين القدامى حيث قال: «وقد أصبحت السبئي والجرهاى أغنى القبائل عامة فعندها مستحدثات الأدوات المصوغة من الذهب والفضة، منها الأسرة ومثلثات القوائم والأحواض وأوعية الشرب، وناهيك بمنازلم الفخمة، وقد تزوقت ابوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان. وترصعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة، وما في بلادها من مناجم للذهب ومياه للري، وما تنتج من العسل والشمع بكثرة، فلو تحريت هذه الأفكار تماماً علمت أنها أغنى بلاد الأرض بما يتوارد إليها من كنوز دولة الرومان والفرثيين»<sup>(٢)</sup>.

وتحدّث هيردوت عن مهارة العرب الجنوبيين في تحضير البخور واللبان وأنواع الطيوب حيث قال إن ذلك كان مشهوراً عنهم بين الأمم القديمة لا يشاركهم فيها أحد، كما كان لهم يد في استخراج المعادن التي اشتهرت بها جزيرة العرب، فقد كان فيها مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة،

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٦٠ - ١/٦٣.

(٢) نفس المصدر من ٦٠ - ١/٦٣.

وذكر الهمداني في صفة جزيرة العرب وياقوت في معجم البلدان وغيرهما كثيراً من مناجم الذهب في اليمن واليمامة والبحرين<sup>(١)</sup>.

وكما كان للسبئيين محطات تجارية برية كانت لهم محطات على خليج العقبة والخليج العربي ظلت تحت أيديهم حتى جاء حكم البطالمة على مصر وشق بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م) قناة بين النيل والبحر الأحمر، وهكذا نزلت أساطيل البطالمة إلى البحر مما أدى إلى اندحار زعامة السبئيين التجارية، ثم ظهرت روما فاتنزعت من البطالمة الزعامة على البحر الأحمر وحذت حذوهم في مزاحمة العرب في البحر وبذلت جهودها في تحرير مصر من الاتكال على اليمن.

وفي القرن الذي اكتشف هيبالوس الملاحة في المحيط الهندي والنفوذ إلى الغرب نشطت السفن الرومانية في البحر الأحمر في أيام حكم كلاوديوس حاملة بضائع اليونان ومصر، وسيطرت على أهم موانئه كهجرا، (الوجه حالياً) والحاء وعدن ومسقط والجرهاء ودلمون، وهكذا بعد أن كان العرب هم رؤاد التجارة العالمية وحماة مسالكها، أصبح الرومان مالكي أزقتها وربابنة أساطيلها.

وعمل الرومان على إحياء الموانئ العربية على البحر العربي والخليج العربي وبناء مرافئ جديدة، منها لويكاكومة (ينبع) والجار والمويلح والخوراء، وكان من أكبرها وأهمها ميناء الجار الذي هو الميناء الأقرب إلى المدينة المنورة، وبواسطته أرسل عمرو بن العاص الطعام المصري الذي طلبه منه عمر بن الخطاب، وكان تجديد ميناء ينبع سنة ٦٢١ هـ سبباً في ضعف الجار ولا زال مهجوراً حتى الآن ويعرف مكانه حالياً بالرئيس وبه آثار مبان عربية ورومانية.

(١) جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٣٠/١.



وقد شهد البحر الأحمر والخليج العربي صراعاً طويلاً ومريراً بين الفرس والرومان الأمر الذي جعلها يخضعان تارة لنفوذ الفرس وأخرى لنفوذ الرومان، وقد احتل الرومان عدن سنة ٤١ للميلاد خلال حكم كلاوديوس وذلك لتأمين طريقهم البحري بين مضيق باب المندب ومضيق هرمز، كما احتلوا هجرا (الوجه) سنة ١٢٥م بعد إسقاطهم لدولة الأنباط.

ولم يقف الرومان عند حد السيطرة على الطريق البحرية فحسب، بل حاولوا احتلال الجزيرة من البر فجردوا حملتهم الشهيرة بقيادة ايليوس غالوس وجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل أبحر من السويس عام ٢٤م، ثم دخل من العقبة وتوغل حتى قرب مأرب وهناك اضطر إلى التقهقر بعد أن فتكت به الطوارئ فتكأ ذريعا فتقهقر إلى نجران التي كان قد احتلها قبلاً ثم اتجه عائداً إلى هجرا ومنها إلى البحر فبره إلى الساحل المصري، وقد استغرقت مدة العودة ستين يوماً<sup>(١)</sup>.

وبالرغم مما بذله الرومان من جهود في شل التجارة العربية وإحكام الحصار الاقتصادي للجزيرة العربية فقد أخذت القوافل تتحرك داخلياً وعبر الأسواق وكانت كثيرة جداً، وعندما جاء الإسلام كان في الجزيرة ما يزيد على ثلاثين سوقاً ذكرها ابن حبيب المتوفي سنة ٢٦٨هـ في كتابه (المحبر)، كما ذكرها اليعقوبي في التاريخ والهمداني في الصفة وأبو حيان التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة) والمرزوقي في الأزمنة والأمكنة، والقلقشندي في صبح الأعشى والبغدادي في خزنة الأدب والألوسي في بلوغ الأرب، ووضع فيها الأستاذ سعيد الأفغاني كتاباً جليلاً سماه (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) وكان أهمها سوق دومة الجندل وعمان والمشقر والشحر وعدن وصنعاء وحضرموت وعكاظ ومَجَنَّةَ والمجاز.

(١) فليب حتى تاريخ العرب ١/٥٩.

وكان من تلك الأسواق ما تُشدُّ إليه الرحال من أقطار نائية كعكاظ، فقد كانت أشبه بنادٍ يعرض فيه إلى جانب البضاعة الأدب من شعر ونثر، وكان يؤمه الكثير من حكماء العرب وشعرائهم ليلقوا حصائلهم الشعرية والنثرية إمّا على ظهور جماهم أو على منابر نصبت لهم.

وقد اختلف الباحثون في تحديد موقع تلك السوق العظيمة بالضبط، ونشر المرحوم الدكتور عبد الرحمن عزام كتاباً مستقلاً بعنوان (عكاظ) كما كتب عنه من قبل ابن الكلبي والاصمعي والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ حمد الجاسر والاستاذ خير الدين الزركلي وممن كتب عنه الشيخ محمد بن بليهد الذي قال في تحديد مكانه مايلي : ثبت عندي أن موضع سوق عكاظ يبعد عن مطار الحويّة مسافة عشرة كيلو مترات شرقاً، وعن الطائف أربعين كيلو متراً وذلك عند المكان الذي يلتقي فيه الواديان وادي شرب ووادي الأخضر شرقيّه ماء السودان وجنوبيه العباء والله أعلم.